مجلـــة بدايـــات
Revue :Bidayat ISSN: 2676-198X
المجلد: الرابع(04) / العدد: الأول(01) / جانفي 2022 / ص ص: 01-12

النص الأدبي بين الأثر النقدي والدور البلاغي . قراءة للشرح الأدبي لمقصورة حازم القرطاجني لأبي القاسم الشريف السبتي الأندلسي

Literary text between critical impact and rhetorical role. A reading of the literary explanation of Hazem al-Carthagin's shrine by Abu al-Qasim al-Sharif al-Sabti al-

هيثم بن عمار [1]، رابح بودية [2]

Hitem amer[1], rabeh boudia[2]

1-2 جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)

البريد الإلكتروني :rabahboudia80@gmail.com

البريد الإلكتروني: algeri069900@gmail.com

تاريخ الإرسال: 06-07-2021	تاريخ التحكيم:08-07-2021	تاريخ القبول: 12-07-2021	**تاريخ النشر**: 30-01-2022

ملخص البحث

النقد الأدبي يبحث في ظاهرة الأدب ويتخذها موضوعا له ، فإذا قلنا إذن أن الأدب تعبيرا اقتضى هذا أن نبحث في أصول التعبير ومنابع الجمال فيه ، وهذا يضفي إلى أن نتخذ البلاغة وسيلة إلى استظهار مطارح الجمال في التعبير لأنها العلم الذي صنف الخصائص البلاغية في الكلام وحاول تحليلها والتعليل لها ، ولكن انطلاق البلاغة والنقد من منطقة واحدة هي الأدب واشتراكهما في العيش فيها يسمح بتجاورهما بل بتداخلهما ، ولا سيما في التراث العربي الذي امتزجت فيه المباحث البلاغية والنقدية ، فالنقد نقد بلاغي والبلاغة بلاغة نقدية ، بمعنى اعتماد النقد على مقومات البلاغة ، واعتماد البلاغة على حس نقدي ، لذا كان النقد العربي القديم في غالبه نقدا بلاغيا ، وهذا ما يسهل البحث فيهما ، لذلك ومن خلال هده الدراسة سنحاول ملاحقة الخصائص البلاغية المهيمنة منها بواسطة الاستقراء والتحليل .

الكلمات المفتاحية : نص، أثر ؛ نقد ، بلاغة، جمالية، مقصورة .

Abstract:

Literary criticism searches for the phenomenon of literature and takes it as its subject, so if we say that literature is an expression this necessitates that we look at the origins of expression and the sources of beauty in it, and this adds to us taking rhetoric as a means to highlighting the beauty in expression because it is the science that classified the rhetorical characteristics in speech and tried to analyze But the emergence of rhetoric and criticism from one region, which is literature, and their participation in living in it allows their neighbors and even their intertwine , especially in the Arab heritage in which the rhetorical and critical investigations are mixed. A critical sense, so the ancient Arab criticism was mostly rhetorical criticism, and this is what makes it easy to search for them. Therefore, through this marked study, we will try to pursue the rhetorical features that dominate them by extrapolation and analysis

Keywords: text; Effect ; Cash ; Rhetoric; Aesthetic; Compartment

المؤلف المرسل: رابح بودية: rabahboudia80@gmail.com

تمهيد :

ظل التراث الأدبي العربي يثير لدى الباحثين العديد من الأسئلة والإشكالات التي تهم طرقه والتعامل معه في ضوء النظريات اللغوية والتحولات النظرية والمنهجية المتسارعة والمتلاحقة التي تعرفها العلوم والمناهج النقدية ، أو ما سطره البلاغيون والنقاد من أحكام وتصورات أو ما عبر عنه الشعراء من رؤى جمالية ، كانت سببا في إعادة طرح قضية قراءة التراث الأدبي وكيفية التعامل مع مستوياته ، فكان السؤال الدائم هل يمن قراءة النص التراثي دون أن نبلور تصورا بلاغيا منهجيا ؟ وهل يمكن إسقاط الدور البلاغي من المنجز النقدي العربي. وهل يمكن أن يكون النص مكتفيا به وحده وغير مكترث بما سواه ؟ وإذا كانت هذه الأسئلة تقتضي اتخاذ موقف واضح من مسألة تقاطع المنجز النقدي والمنجز البلاغي كان هذا يتطلب أيضا صياغة رؤية منهجية دقيقة في طرق دراسة التراث الأدبي ، لهذا من خلال ما تقدم سنحاول أن نبرز الدور البلاغي وعلاقته بنقد وقراءة النصوص الأدبية .

1_ ثنائية النقد والبلاغة في الموروث العربي :

إن العلاقة بين النقد والبلاغة في الأدب العربي القديم أثارت _ولا زالت _ الكثير من التساؤلات والنقاشات وذلك بسبب هيمنة الجانب البلاغي على النقد القديم ، فالنقد كان نقدا بلاغيا والبلاغة كانت بلاغة نقدية ، وهذا في الغالب الأعم ، ومعنى ذلك اعتماد النقد على مقولات وفنون البلاغة واعتماد البلاغة على الحس النقدي ، فالنقد الأدبي كما يرى البعض هو أبو البلاغة العربية في حجره نشأت ، وفي رحابه درجت ، فهي تنسب إليه وتنبثق عنه ، ولهذا توثقت الصلة بينهما.

فالدارس إذن لبدايات النقد والبلاغة وخاصة في القرون الأربعة الأولى يتبين ما تزخر به مؤلفات النقاد والبلاغيين من إبداع وجمال وتذوق ، نرى هذا الإبداع والحكم الصائب السائد فيما تركوه لنا من كتب خالدة صمدت دهورا أمام عواتي الرياح وعواصف الدهور كشفت عنها ذخائر تراثنا مثل البيان والتبيين للجاحظ ، والكامل للمبرد ، والبديع لابن المعتز والموازنة للآمدي ،[1]ومدى امتزاجها وارتباطها الوثيق في طور النشأة والتكوين ، بل يقف على وحدة هدفها في نقطة الانطلاق ومساحة العمل ، وهذا الامتزاج جعل من العسير الفصل بينهما في هذه المرحلة الخاصة ، فقد تداخلت المباحث البلاغية والنقدية تداخلا يصعب معه وضع الفواصل والحدود بما يميز كل علم عن الأخر قبل مرحلة التقعيد . فالحديث إذن عن الأصول التي تجمع البلاغة بالنقد القديم إنما هو حديث عن الحبل السري الدقيق الذي يصل البلاغة بالنقد ، أما سبب وجود هذا الحبل وعلته فهو الطاقة الجمالية التي تفرزها البلاغة العربية ، ثم اعتماد أسباب هذه الطاقة في الأحكام النقدية ، فالبلاغة عناصر جمالية والنقد بوجه عام أحكام تستند إلى هذه العناصر[2] . فإذا كانت البلاغة كما لوحظ تتم بالطريقة الصحيحة التي تكسب العمل الأدبي الحسن والجودة كما يقول العسكري (ت395هـ)[ولهذا العلم بعد ذلك فضائل مشهورة ومناقب معروفة ، منها : أن صاحب العربية إذا أخل بطلبه ، وفرط في التماسه ففاتته فضيلته ، وعلقت به رذيلة فوته ، عفى عن جميع محاسنه وعمى سائر فضائله ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر رديء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله ، وظهر نقصه] [3]، والنقد هو نظر يهتم بالحكم على هذه الطريقة ومدى تحقق نسبة الجودة فيها ، من دون أن يغيب عن البال أن هذا الحكم يقوم على المبادئ والمثل

الجمالية نفسها التي استند إليها العمل الفني . أي : أن الحكم النقدي إنما هو معيار للمثل الجمالية ، ولما كانت المثل الجمالية هي ذاتها الفنون البلاغية كان الحكم النقدي تعييرا وضبطا للفنون البلاغية .[4]

وبناءا على ما تقدم إذن ، تكون العلاقة بين البلاغة والنقد القديم علاقة حتمية تكاملية ، تقوم على الجانب الجمالي بين الطرفين ، فالبلاغة فنون جمالية وأساليب بيانية ، والنقد تقدير لهذه الفنون وتلك الأساليب .

2_ الخطاب الأدبي والتحليل البلاغي :

إن الإبداع الفني يقتضي مثلا جمالية وأصولا فنية يمتح من معينها المبدع ، ويستقي من مائها ليصل من كل ذلك إلى مستوى من الحسن والجودة والإتقان ، يعتقد به أنه سيترك أثرا في المتلقي ، لأن الغاية من إتقان أي عمل فني عند العرب القدماء ، إنما هي الوصول إلى المستوى الأبلغ والأجود ، وكل ذلك بهدف التأثير في المتلقي [5]، ذلك أن الهاجس الذي يدور في خلد المبدع إنما هو الوصول إلى أقوى تركيب ، وأفخم لفظ ، وأجمل بيان ، ويضاف إلى ذلك الحرص الشديد على إيصال شعوره وكل ما يجول في خاطره إلى ذهن المتلقي .ولكن طبيعة الجمال لا تتفق عند التعبير ولا ما اتخذه من صور البيان ونماذج الأساليب فحسب ، إنما يتجاوزها إلى ما وراء التعبير من ملكة تثبت الحيوية فيه ، وهو ما أثار إليه القدماء بالطبع تارة وبالرواء والماء تارة وبالطلاوة تارة أخرى ، من ذلك قول الجاحظ [إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك][6]

إذن فمثل هذه المثل الجمالية في العمل الفني وليكون النص الشعري مثلا ،لابد من إتباع قوانين معينة وأساليب محددة تكون كفيلة بتوفير طاقة جمالية تعم النص الشعري من أوله إلى آخره ، طاقة جمالية تشع من ألفاظه ومعانيه وتراكيبه وأنغامه وموسيقاه ، وصدق المشاعر وحسن صوغها والتعبير عنها ، أما هذه القوانين وتلك الأساليب فيراد بها فنون البلاغة العربية ، لأن البلاغة هي ذلك العلم الذي يحدد الهيئة التي استوت عليها مكونات النص الشعري حتى بان حسنا جميلا ، فهي التي تهتم بجودة اللفظ وصحة المعنى وجمال النظم واستواء النسج وقوة التركيب كما تهتم بوسائل التأثير التصويرية والموسيقية ، وهي العلم الذي يمتلك وسائل فنية تعبيرية تناسب كل غرض من أغراض الشعر ، وهي العلم الذي يعلم فن التصرف في كل هيئات القول ومسالكه ، فمدار البلاغة إذن ؛ على تحسين الكلام وإحكام صنعته وتنميق ألفاظه وتجويد معانيه ، وما من شك أن العمل الأدبي إن اشتمل على مثل هذه الصفات حاز مرتبة الجودة وامتلك صفة الجمال ، فالطاقة الجمالية التي تلحظ في أي عمل أدبي تعود في قسم كبير منها إلى فنون البلاغة وحسن تأتيها ،لذلك يذهب العمري في مقدمة تحقيقه لكتاب " المسلك السهل في توشيح ابن سهل " للإفراني إلى تقسيم هذه الشروح حسب إشكالية النص والغرض المتوخى من الشرح ثلاث أنواع، شرح نصوص دينية تتعلق في الغالب بمدح الرسول (ص) وتثير قضايا صوفية و شروح تستهدف غاية لغوية تعليمية ،وشروح تتجه إلى القيمة الأدبية للنص وتعد الشرح اللغوي والإعراب والتخريجات البلاغية وسيلة لاجتلاء دور المعاني . [7]

من المؤكد إذن أن هذا الأخير_ علم البلاغة_ قد عرف عبر تاريخه أنه ينقسم إلى قسمين أو إلى خطابين : خطاب موصوف يدل على موضوع الخطاب ، وخطاب واصف يتصل بوظيفة البلاغة من حيث هي نشاط يهتم بوصف الخطابات وتحليلها وإظهار كيفية تأثيرها بناء على آليات نظرية مختلفة باختلاف النظريات النقدية منها والحديثة ، لذلك فقد أكد أحد البلاغيين المحدثين " كبدي فاركا "في هذا السياق أن البلاغة –بحسب تعريف أولي – هي مجموعة من التقنيات التي تسمح بوصف عملية إنتاج الخطابات والنصوص وإعادة بناءها ، وبذلك تظل في تصوره إلى حد ما الأداة الجيدة التي تسعفنا في وصف الكيفية التي ينبني بها النص .[8]

ومن خلال هذا إذن ؛ يبدوا أن اعتبار البلاغة منهجا لوصف الخطابات المختلفة وتحليلها يرجع حسب – هنريش بلييث- إلى سببين اثنين أولهما تاريخي يتعلق بإنتاج النصوص حسب قواعد بلاغية ، ويكون استعمالها مناسبا لكشف تنظيم النصوص ، وآخر منهجي يرتبط بما أبدته البلاغة من مرونة خلال تاريخها الطويل في التطبيق على النصوص الجديدة . ومن هنا لم تعد البلاغة في تصوره تهتم بإنتاج الخطابات كما هو الشأن في القديم ، بل أضحت تختص بتحليل الخطابات المختلفة ووصف آليات اشتغالها .[9] لذلك من خلال ما سيأتي وبالنظر إلى المنجز البلاغي باعتباره بلاغة إنتاجية وصفية (معيارية) تعنى بتحليل الخطاب الشعري ، سنحاول أن نبين جانبا من ذلك من خلال التحليل البلاغي للنص الأدبي ، التي تتخذ من النص الشعري منطلقا للتحليل.

2- التحليل البلاغي واستراتيجية القراءة المنهجية للنص الشعري :

ظلت البلاغة تشتغل حيزا عظيما في حقول المعرفة الفلسفية والنقدية والأدبية منذ أرسطو ومرورا بالدراسات العربية في عصورها الذهبية وصولا إلى التيارات الأدبية الحديثة ، فالقراءة البلاغية إذن ؛ تتميز بموضوعيتها العلمية في استقراء الظاهرة الأدبية ، لأن البلاغة مقوم الأدب الفني وسمته الإبداعية ، والأدب مادتها تعلم بصنعته وتبصر بنقده . وعليه فالبلاغة هي علم النص الكلي ، لأن أجود الشعر أبلغه ، ولا محيص لأي منظر حصيف من الوعي بتنامي الفعل البلاغي والتحولات المحدثة في تراكيب اللغة بوصفها وصفا مجازيا دالا على سياق النص الأدبي. فالبلاغة التطبيقية إذن وكما نرى تتصل في تراثنا البلاغي في جانب من جوانبه بخطاب الشرح الشعري ، لاسيما ذلك الاتجاه الذي يتجاوز في عملية التحليل المستوى اللغوي إلى المستوى البلاغي فيكشف عن بلاغة النص وجودته ، أي بمعنى الانتقال إلى البحث عن القيمة الأدبية للنص المشروح ، إذن إلى الناظر إلى التراث البلاغي سيرى حتما لأن هنالك العديد من المصادر قد نحت نفس المنحى كما هو الشأن بالنسبة لابن جني(ت392هـ) والتبريزي (ت502هـ) في شرحه لديوان أبي الطيب المتنبي ، وكذلك في نفس الاتجاه أي الاتجاه البلاغي سار الإفراني (ت1156هـ) في شرحه للمسلك السهل في توشيح ابن سهل ، إلى غير ذلك من الأعمال الشارحة التي مالت بقوة نحو التحليل البلاغي في أبعاده التخييلية والتداولية متجاوزة كلا من الشرح المعجمي والإحالات التاريخية . [10]

إذن ، فإذا كانت هذه القراءات الشارحة ذات اتجاه محدد ، فأنها مصاغة بأسلوب موحد (نقدي بلاغي) ، أبان فيها أصحابها عن ذوقهم الشخصي من خلال تذليل صعوبات النص اللغوية المشكلة ، وكشف جوانبه الأسلوبية بجميع الآليات المتاحة

ووصفا لما يجعل منها نصا شعريا مؤثرا في النفوس ، وذلك من خلال التركيز على تحليل عدة مستويات من لغة النص ، وهو أمر ليس سهلا وبسيطا كما قد يظن ، فأدبية النصوص تستعصي على القارئ الناقد فضلا عن القارئ العادي نظرا لطابعها المزدوج ، فهي من جهة كامنة في النص ذاته وخارجة ، أي من حيث قدرة الشارح على تحصيلها واستكشافها وإخراجها من حال الكمون والخفاء إلى حال التجلي يقول عثمان موافي [لكي يتسنى للدرس النقدي تحقيق غايته المنشودة فيحسن ربطه بالدرس البلاغي ، وصحيح أن مجال هذا يختلف اختلافا طفيفا عن مجال ذلك ، فقد يعنى الدرس البلاغي بالشكل ، وقد يعنى الدرس النقدي بالعمل الأدبي كله ، لكنهما على كل حال يلتقيان في النهاية حول تقويم العمل الأدبي ونقده .] [11]

ويؤكد العشماوي رأيه في عدم الفصل بين النقد والبلاغة قائلا [وواضح لنا أن القرون الخمسة الأولى للهجرة كانت عهد ازدهار في التراث النقدي و البلاغي وبالأخص في القرون(5.4.3هـ) أي بدءا بالجاحظ وانتهاء بعبد القاهر الجرجاني ، ولا يخفى على أحد أن هذه الفترة قد استطاعت أن تطرح أروع ما في تراثنا النقدي على المستويين النظري والتطبيقي ، وامتازت هذه المرحلة فوق غناها بأنها المرحلة التي لم ينفصل فيها مفهوم النقد عن مفهوم البلاغة ، فكانا حبتي قمح من سنبلة واحدة ويؤديان ذات الوظيفة ، وكانت كلمة البيان العربي هي المصطلح الذي يطلق على جميع الدراسات التي تعنى بتمييز إدراك ما في الأدب من قيم وما فيه من حقائق] .[12] لكن بداية وقبل أن ننطلق في عملية التحليل كان لابد لنا من أن نشير بداية إلى أهم ما يميز هذا الكتاب (**رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة**) في أن الشارح قد ربط في قراءته التحليلية للنص الشعري بسياقه الفني والتاريخي، مستفيدا كذلك من بعض الآليات التأويلية المرتبطة ببنية النص التركيبية والدلالية لدعم عملية التحليل والتأويل البلاغي الداخلي في كشف طريقة بناء النص ، إذن فمن خلال هذا يمكننا أن نبين ترتيب الخطوات المنهجية التي عمل بها في كتابه .

2_ الدور البلاغي وأثره في تحليل النص (المقصورة) :

1.2_خطة شرح المقصورة واستراتيجية القراءة المنهجية :

يخضع شرح أبي القاسم الشريف السبتي للمقصورة لمنهج محدد ينتظم على وفقه البناء العام للشرح ، وقد حدد معالمه بدقة في المقدمة ، وقد حاول أن يلتزم به على الشيء الذي جعل من الشرح وحدة متماسكة منسجمة مفيدة .

فمن خلال ما سبق إذن تتضح لنا طبيعة المنهج التحليلي في تكامل مكوناته وتفاعلها وانسجامها ، لتؤسس بذلك منهجا بلاغيا يهدف إلى إبراز القيمة الأدبية والفنية للنص المشروح إذن فإننا لا نكاد نتعجب ونحن نتأمل الكتاب تأملا شاملا لوعي الرجل بالمحيط العام الضروري لفهم النص وتقويمه ، وهذا الذي لا يتحقق إلا بعد أن يوضع النص في إطاره الفني والتاريخي .كذلك من أهم ما يمكن أن نستنتجه إضافة إلى أهمية هذا المنهج هو وعي أبي الشريف بأمرين هما :

1_ أهمية البلاغة باعتبارها المنهج المناسب لدراسة أدبية النص لأبي القاسم السبتي:

إن المتأمل الواعي يدرك أن المنهج البلاغي يظهر جليا في كتاب أبي القاسم ، وذلك من خلال تركيزه عليه حيث يتضمن بيان ما يحتويه هذا النص الشعري من مقومات بلاغية تنتمي إلى الفنون الثلاثة علم البيان ، وعلم البديع ، وعلم المعاني وبوصفها منهجا للفهم النصي الذي يمتلك دلالة أساسية لنظرية الأدب ، كذلك باعتبارها منهجا لتحليل تلك النصوص والمساهمة في كشف تركيبها الشكلي وفي ذلك يرى الناقد الغربي (g. leech) أن ديناميكية الحياة البلاغية داخل النص الأدبي هي روحه وهي التي تجعل منه _لا محالة _نصا أدبيا (poetique) وهي في كل ذلك أساس الخاصية الشعرية على حد تعبير أصحاب "الشكلانية الروسية " . [13]

2_ وظيفة الأدب الجمالية :

نحن ندرك أن الوظيفة الجمالية للأدب من أهم ومن ألطف المطالب وأعلاها وأغلاها كما أشار أبي القاسم ، خاصة حينما بدا ذلك جليا من خلال إشاراته إلى مقصده من هذا الشرح ومن هذه الدراسة التحليلية ، مهمته الكشف عن ما تضمنته القصيدة من رقيق الاستعارات والتشبيهات البليغة التي يستحسنها الأديب ويتمثلها الأريب ،[14] لأن الشعر كما هو معروف إنما يستطاب بمثل هذه المجازات ،[15] فمن خلال هذا إذن؛ يتضح لنا المنهج المعتمد إذا تكلمنا عن المشروع ، لذلك فيما يأتي سنحاول إفراد مستوى التحليل البلاغي بالتمثيل مع شيء من التركيب .

المنجز التحليلي البلاغي للشرح الأدبي للبردة :

تمثل القضايا البلاغية وما يرتبط بها من تذوق واستحسان ونقد أهم وأمتع القضايا التي يحتوي عليها شرح أبي القاسم السبتي ، لقد توسع توسعا كبيرا ، وأولى هذا الجانب اهتماما بالغا أكثر من أي جانب آخر ، مما أضفى على الشرح صبغة أدبية نقدية خاصة تمزج بين الضرورة وطبيعة العلم وتجليات الفن ، وبين تقارير القاعدة والمصطلح والشاهد ، وتزاوج بين الشرح والتحليل وبين الموازنة والأحكام النقدية الذوقية والفنية والتعليلات الطريفة ، مما مكن من إبراز مواطن الجمال والجودة وأفصح عن دربة وطول باع في الأدب وفنون العلم المختلفة .

لقد كونت إذن الظاهرة الأدبية مادة خام وموضوع بحث جاد قصد تفسيرها ومحاولة الإحاطة بخفاياها الفنية والجمالية التي تتطلب من الناقد حضورا ذهنيا ، وذكاء فطريا ، ومعرفية نقدية متأصلة في ميدانه ، ولقد أسهم العرب القدامى في إثراء الدراسة النقدية بشتى العلوم والمناهج اللغوية ، ومنها علوم البلاغة RHETORIQUE التي كان لها الفضل الكبير في صناعة كلام العرب وإجادته ، وعنها يقول أحد البلاغيين [فليست البلاغة قبل كل شيء إلا فنا من الفنون يعتمد على صفاء الاستعداد الفطري ، ودقة إدراك الجمال وتبين الفروق الخفية بين صنوف الأساليب][16] ، فقد كون شرح النص ثروة بلاغية وافرة متلاحمة لا نستطيع أن نفك روابطها ، لأنها وردت على شكل ملاحقات لتتبع مضامينه الخاصة ، ولهذا يورد الأوجه المحتملة لإيضاح الصورة

حسب علوم البلاغة ، والبيان ، فقد جمع بين النظري الصرف وبين منهج التطبيق المباشر للنص ، وبهذا التحري كشف الغطاء عن تعريفات لقواعد بلاغية كانت عصية عن إدراك المتعلم وبسطها له لتساعده على تذوق النص المختار ومده بأدوات البحث لينطلق باحثا هو أيضا عن مواطن الجمال وأسرار الخطاب . كما أن هذه المعطيات البلاغية التي أفرغها أبي القاسم في ثنايا شرحه تجمع بين الجانب النظري المنصرف إلى التحديد والتقنين والضبط الذي يحصر الفنون البلاغية في تعريفات وقوانين عامة ، وبين الجانب التطبيقي العملي المنصرف إلى التحليلات والتعليلات والمناقشات التي تكشف عن مواطن الجمال والمتعة والجودة .

ليس غريبا إذن أن يتناول أبي القاسم في شرحه هذه النقطة _المعالجة البلاغية_ من ضمن ما تناوله من قضايا ومضامين أخرى ، وكان في الواقع مفصلا فيما كتب مبينا على هضمه لتلك القواعد وتبحره في فهمها ، لأنه وقف مطولا إزاء الأبواب أو المضامين البلاغية الشهيرة من بيان ومعان وبديع ، وقد وظف هذه الأدوات البلاغية في شرحه وكأنه أراد أن يحكم بأن خلو الخطاب الشعري من بعضها أو جلها قصور وتخلف ، لذلك نجده يتخذ موقف من ذهبوا إلى تطعيم الشعر بأدوات بلاغية وبصورة مثيرة وفي هذا يقول ابن رشيق [وقال غير واحد من العلماء : الشعر ما اشتمل على المثل السائر ، والاستعارة الرائعة ، والتشبيه الواقع وما سوى ذلك فإنما لقائله فضل الوزن][17] ،فقد مزج الشارح بين ضرورة وطبيعة العلم وتجليات الفن ،وبين تقرير القواعد وجلب الشاهد فقد أتى على ذكر الكثير من المصطلحات البلاغية في الشرح والتحليل وأقام موازين نقدية استنبطها من تعليلات طريفة وموفقة ما جعلها تزخر بمعارف فنية الدقة في المصطلح البلاغي يفصل في أنواع الأوجه البلاغية ويوثقها يضيف بعض الوظائف للأوجه البلاغية ، تكرار الأوجه البلاغية إذ يلتزمها بذكر جنس من استعمل الوجه البلاغي ، يذكر قيمة الوجه البلاغي ويزوده بشروح .وبالنظر إلى غرض أبي القاسم يمكننا تحديد من خلال ما سيأتي بعض الشواهد وما يرتبط بها من تذوق واستحسان ونقد .

1_ المعايير البلاغية وأثرها في نقد النص الشعري :

أ_ التراكيب الجمالية وأثرها في نقد النص الشعري في شرح المقصورة :

لتتحقق مثل المثل الجمالية في العمل الفني وليكون النص الشعري مثلا لا بد من إتباع قوانين معينة وأساليب محددة تكون كفيلة بتوفير طاقة جمالية تشع من ألفاظه ومعانيه وتراكيبه ،وصدق المشاعر وحسن صوغها والتعبير عنها .ولما كانت البلاغة هي ذلك العلم الذي يحدد الهيئة التي إن استوت عليها مكونات النص الشعري بان حسنا جميلا فهي التي تهتم بجودة اللفظ وصحة المعنى وجمال النظم ، ما جعل الشاعر يتقن فن التصرف في تحسين الكلام وإحكام صنعته ، وتأنيق ألفاظه وتجويد معانيه ، حتى يجعل من النص الشعري ذو طاقة جمالية تعود في قسم كبير منها إلى فنون البلاغة يقول :[18]

لله ما قد هجت يا يوم النوى على فؤادي من تباريح الجـــــــوى

لقد جمعت الظلم والإظلام إذ واريت شمس الحسن في وقت الضحى

لقد استحسن أبي الشريف السبتي هذا البيت خاصة بعدما أحسن الشاعر استعمال الاستعارات ما عده منزعا حسنا سلكه الناظم وغوص عظيم ودقه نظر.

ويقول أيضا في قوله : [19]

يـــا قاتل الله الحمام فلكم أبكى عيون العاشقين إذ بكى

هاجت بدوران لقيس لوعة وأذكرته دار حب قد نـــــأى

فأبي الشريف من خلال هذا البيت يشير إلى عنصر من عناصر البلاغة وهو أسلوب التناسب في النظم ، إذ يقول أنه ولابد من الغوص على غرض الناظم وإلا خرج عن قصد البلاغة .

فكان إذن ما ارتكبه الناظم أعلى درجة ، فإنه لو سلك هذا المسلك لعلم أنه لا يبكي حتى تهب ريح ، أو يلمع برق ، وليس في هذا دليل على بلاغة نظم ، فهذا إذن ليس مما يعجز الناظم على سبكه في نظمه ولكن غاية ما في الأمر أنه أفاده اختصارا وهذا مما أكسب البيت جودة ،

لكن نرى أن الناظم قد جاء بأحسن وأبلغ من هذا ، لكنه حصل للناظم في البيت بتلك اللغة التي ارتكب اختصار وطباق ومقابلة ومراعاة النظير ، وجناس .

كذلك من اللافت في هذا التحليل أيضا هو تركيز أبي الشريف على الوظيفة التي يؤديها الأسلوب الشعري المعتمد من حازم القرطاجني يقول في بيت [20]

شفى فـــــؤادي رشفه من بعدما أشفى بقلبي طرفه على شفـــا

لقد أحسن الشاعر ترتيب الكلام وصوغه على هيئة أكسبته الحسن والجمال خاصة بعدما أجاد رصفه والتدقيق في الاستعارات حتى جاء في غاية البلاغة ، ما جعل الشارح يستحسنه حتى إنه يقول رحم الله الناظم ، لقد غزل فيه غزلا رقيقا وسلك فيه من طرق البيان منحا غريبا دقيقا .

ويقول في بيت لاحق أيضا :[21]

خليفة الله المسمى المكتنى خير الأسامي الساميات والكنى

لقد استطاع الناظم أن يأتي بأحسن تعبير بعدما أحس في هذا البيت وأجاد ، خاصة بعد أن جاء بهذا القول مبالغة في التعبير عن الأفضلية ، ومعلوم أن عبارته هذه أبلغ مما لو قال [أفضل البشر] لأن في هذا ما يشعر بالمشاركة ، إذ" أفعل " تأتي غالبا من الجنس المشترك ، وقد قدم أن جوهر الحسن غير منقسم ، وإذا كان كذلك فلا اشتراك فكان قول الناظم [خير الأسامي] أبلغ .

فأبي الشريف السبتي ، من خلال هذه النماذج وهذه المسافات الممتدة حرص أن تكون قراءته للنص الشعري مستمدة أو مبنية على مستوى بلاغي ،كما كان مساره في إصداره للحكم أن يدير حوارا تفاعليا يجمع بين الآراء المختلفة يستعرضها مناقشا أدلتها ، وما حشده في مستويات البلاغة يسمح لنا بالقول إن التصور النقدي الذي ينتمي إليه هو تصورا غايته تبيين جودة النص والتدليل على أفضليته ، وعلى تذوق جماليته والتلذذ به . لذلك نرى كيف ساهمت المضامين البلاغية في تقرير وتبيين المعنى الجمالي للنص وكيف استطاع الشارح صياغة رؤية منهجية جعلت من البلاغة نظرية وآلية ومنهجا لتحليل النصوص على مبررين ، الأول ذو طبيعة تاريخية ، فهناك أمر أكيد وهو أنه على طول تاريخ وجود نظرية بلاغية فإن النصوص الشعرية المختلفة كلها تنتج حسب قواعدها ، فإذا استعمل الشارح بعد ذلك المقولات البلاغية لتأويل تلك النصوص فإنه سيساهم في كشف تركيبها الشكلي ، فما كان متصورا عن طريق الفكر إذن و التعابير المعيارية أمكن إدراكه اليوم بفضل الوصف البلاغي ، إذ وظيفة المنهج البلاغي المطبق بهذا الشكل من قبل الشارح تمكن في تبيين قيمة النص . (22)

والمبرر الثاني ذو طبيعة جوهرية فقد أظهر الشارح من خلال التحليل البلاغي إمكانية تطبيق النظرية البلاغية في نقد النصوص الأدبية باعتباره أن كل نص هو بشكل ما " بلاغة " أي أنه يمتلك وظيفة تأثيرية ، ومن هنا إذن تصبح البلاغة المعيارية بلاغة وصفية تعكس بصورة نقدية وضعية تلقي النص لتكون البلاغة مؤهلة في هذه الحالة لتكوين نظرية منهجية للفهم النصي . (23)

ب_ نظرية التناص ودورها في بناء العملية النقدية البلاغية :

يعتبر المستوى البلاغي للنص الأدبي مضمار ما يقع بين التفاضل وينعقد بين الأماثل في شأنه التسابق والتناضل ، وكأنه الشارح يريد أن يقر بأن الأساس في التفاضل الفني بين الشعراء في إخراج المعنى هو المستوى البلاغي ، ذلك أن سبيل المعاني [أن ترى الواحد منها غفلا ساذجا عاميا موجودا في كلام الناس كلهم ثم تراه وقد عمد إليه البصير بشأن البلاغة وإحداث الصور في المعاني ، فيصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق حتى يغرب في الصنعة ويدق في العمل ويبدع في الصياغة](24)

ولكون التناص يختزل لنا جانبا من الرؤية النقدية البلاغية فقد اتخذ أبي الشريف من هذا الأساس البلاغي مدخلا لتتبع حوار الشعراء في تداول المعاني الشعرية ، إذ قلما نجده في تحليله لأبيات البردة يخرج عن هذا المنهج على نحو يبين أن قراءة النص ورصد أدبيته إنما تتم من خلال نوعية العلاقة التناصية التي يقيمها مع غيره من النصوص الواقعة في مجاله الحواري .(25)كما يتجاوز أحيانا إلى بيان الكيفية التي تمت بها عملية التناص حتى كاد هذا الأمر أن يشكل طابعا عاما ، وذلك كما هو واضح يقول معلقا على بيت حازم يقول : (26)

من كل من يعتد نسبة بها يجلى أن يقال : ابن جلا

يشير أبي الشريف من خلال هذا إلى موضع التناص في سياق تداول الشعراء لمعنى البيت حيث يقول في بيت حازم أنه وقع على حافر سحيم بن وثيل بن عمر في شطر من أشطار قصيدته يقول :[27]

أنا ابن جلا وطلاع الثنـــايا متى أضع العمـــامة تعرفوني

فإذا ما نظرنا إلى هذه المعارضة من الجهة النقدية نجدها تؤكد ثنائية جمالية يحظر بها هذا النوع من الشعر ، خاصة بعدما بين أبي الشريف السبتي طريقة تناص حازم مع هذا المعنى من خلال فعل المعارضة الشعرية وذلك من خلال تحليل تناصي لنموذج شعري تعارضي استطاع الشارح من خلاله وبالاعتماد على رؤية نقدية بلاغية وعلى ذوقه أن يحدد الطبيعة أو ما تؤديه العلاقة الاستعارية في التصوير ،ومدى اعتماد كل من الشاعرين على الإصابة في الوصف ،وعليه فإن الإجراء النقدي البلاغي له ما يقوله في ذلك ، فمن شأنه أن يسهم في التمييز بين النصين في المشابهة والاختلاف وفي الإصابة في التعبير .

إذن ، فأبي الشريف السبتي وباعتماده على النظرية النقدية البلاغية قد حاول تحديد طبيعة العلاقة التي تربط نصا بآخر وقد وقفنا على جانب من ذلك وانتهينا إلى أن المعارض إنما يعارض نموذجه الفني أو يختلف عنه في القصيدة الواحدة أو أقل في المعنى الواحد ، وذلك بناءا على آليات بلاغية تعكس حدود ومستويات التشابه والاختلاف بين النصين في درجة التمكن ، إذن فقد أصاب سحيم في التعبير عن القوة ، لكن بالرغم من هذا يبق الناظم قد تخيل معنى حسنا استعاره ، وقد ختم أبي الشريف إذن مقارنته بحكم نقدي يبين فيه اطلاعه على أهم التصورات النقدية حول قضية الأخذ ، بعدما أقر بإجادة الشاعر المعارض في تصوره لأنه أحسن الأخذ بعد أن صاغها بأسلوب بليغ . ولئن كان علماء البلاغة قد اتفقوا على أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صوره ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها[28] .فحازم إذن ؛وفضلا عن استدعاءه لبيت سحيم ، قد عمد كذلك إلى استدعاء معنى لبيت المتنبي يقول: [29]

يرتد طرف الشمس عنه حاسرا وترجـــع الأرواح عنه القهقرى

ويقول المتنبي [30]

فإنه شمس فضل هم كواكبها يظهرن أنوارها للناس في الظلم

إذن لقد استحسن أبي الشريف قول الناظم بعد أن عده أجاد في صياغة الصورة التشبيهية يقول إن الناظم في معارضته الذاتية استطاع أن يتصرف في مكونات الصورة الأصل بكيفية فنية مختلفة مكنته من إضافة لبنة جديدة إلى التصوير البياني ، وهو يؤكد أن المعارضة الشعرية التي تحققت في هذا السياق ليست مجرد وسيلة فنية لتأكيد المشابهة مع مكونات النص النموذج بل هي مسلك

قرائي وتناصي يروم تحقيق الاختلاف على جميع المستويات الفنية .إذن من هنا يظهر دور المنهج البلاغي في عملية تحديد شعرية النص وإبراز سر ميزته .

إذن مما تقدم نرى أن المستويات الفنية السابقة تعكس لنا بحق طبيعة الرؤيا النقدية البلاغية في متابعتها لحوار النصوص وتفاعلها التي ظلت مخلصة في بعض جوانبها لمبحث السرقات الجمالية ، إذن فوفقا لهذا فأبي الشريف يعبر عن رؤية بلاغية جمالية يمكن الاطمئنان إليها ثم اتخاذها منطلقا وأساسا في التمييز بين الجودة والرداءة بين أشكال الحوار ، وهذا الأمر إذن يكاد أن يشكل طابعا عاما أسر الرؤية النقدية خاصة بعدما صدق هذا المنحى على عمل ابن مرزوق نفسه ، بالرغم من أنه عالج قضية الأخذ (السرقات) معالجة بلاغية قريبة من التصور الدلالي للتناص في النظرية البلاغية .

نتائج البحث :

ومن خلال ما تقدم فقد كشفت الدراسة عن وعي أبي الشريف بأهمية القراءة البلاغية في تحقيق شعرية النص وإبراز مزيته متوسلا بذلك بآليات نصية تمس مختلف مكونات اللغة الشعرية ،خاصة بعدما استطاع تبسيط المادة تعللا وتحليلا وصياغة وبذلك يكون كتاب الإظهار نموذجا للقراءة البلاغية خاصة بعدما خاض الشارح في غمار النقد البلاغي ، وقد ظهر ذلك جليا من خلال اهتمامه بذكر القيم الفنية لبعض الألوان البلاغية ، فظهرت قيمة التشبيه الفنية من خلال المبالغة فيه وتأثيره في النفس ، أما الاستعارة فتحدث أبي الشريف عن أهميتها في تأكيد المعنى وتقويمه وتقريره فضلا عن تأديتها المبالغة فيه وضرورة تحقيق شرط المناسبة بين طرفيها ، وأدرك قيمة الكناية من خلال ما يضيفه على النص الأدبي من جمال ،ولما لها من أثر الإمتاع في نفس المتلقي واستحسن الوضوح في المقابلة الذي لا يحتاج فيه المتلقي إلى التأويل من أجل امتاع الحاسة الفنية لديه .

الهوامش :

1. ينظر :نوال عبد الرزاق سلطان : العلاقة بين البلاغة والنقد حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، تقديم :مازن عبد القادر المبارك ، دار البشائر للطبع ، (ط1) ، دمشق ، سوريا ، 2008، ص08.
2. ينظر : حسين الأسود : أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سوريا ، العدد81، الجزء 1، ص1.
3. أبو هلال العسكري : الصناعتين ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، (ط1) ، القاهرة ، مصر ، 1952، ص02.
4. قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجي ، دار الكتب العلمية ،)، (دط) ، بيروت ، لبنان ، (دس) ، ص62.61.
5. ينظر : حسين الأسود : أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، مجلة مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سوريا ، العدد81، الجزء 1، ص03.
6. الجاحظ : الحيوان ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، (ط3) ، بيروت ، لبنان ، 1969، ص 132.131.
7. ينظر : عبد القادر بقشي : البلاغة التطبيقية : التحليل البلاغي للنص الشعري في خطاب الشرح الأدبي ، مجلة البلاغة والنقد الأدبي ،المغرب ، العدد 2 ، 2014، ص25.
8. المرجع نفسه : ص 25.

9. هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، ترجمة : محمد العمري ، دار إفريقيا الشرق ، (ط1) ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1999، ص23.
10. ينظر : عبد القادر بقشي : البلاغة التطبيقية : التحليل البلاغي للنص الشعري في خطاب الشرح الأدبي ، مجلة البلاغة والنقد الأدبي ،المغرب ، العدد 2 ، 2014، ص26.
11. عثمان موافي : دراسات في النقد العربي ، دار المعرفة الجامعية ،(دط) ، القاهرة ، مصر ، 2000، ص29.
12. محمد زكي العشماوي ، الرؤيا المعاصرة في الأدب والنقد ، دار النهضة العربية ،(دط) ، القاهرة ، مصر ، (دس) ، ص140.
13. محمد فلاق : إظهار صدق المودة في شرح البردة لأبي عبد الله بن مرزوق الحفيد التلمساني دراسة وتحقيق ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي ، إشراف :مصطفى درواش ، جامعة تيزي وزو ، الجزائر ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، قسم الأدب العربي ،2009، ص61.
14. ينظر : شوقي علي الزهرة ، الأسلوبية بين عبد القادر وجون مري ، مكتبة الأدب ، (دط) ، القاهرة ، مصر ، (دت) ، ص15.
15. محمد الإفراني : المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل ، تحقيق : محمد العمري ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، (دط) ، المغرب ، 1997، ص147.
16. المصدر نفسه : ص158.
17. علي الجارم ومصطفى أمين : البلاغة الواضحة ، دار المعارف ، (ط17) ، القاهرة ، مصر ، 1964، ص 8.
18. أبي الشريف السبتي : رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ، تحقيق : محمد الحجوي ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، (دط) ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1997 ، ج1 ، ص 200.
19. المصدر نفسه : ص 271.
20. المصدر نفسه : ص 363.
21. المصدر نفسه : ص 378.
22. ينظر : هنريش بليث : البلاغة والأسلوبية ، ترجمة : محمد العمري ، دار إفريقيا الشرق ، (ط1) ، الدار البيضاء ، المغرب ، 1999، ص23.
23. المرجع نفسه :ص29.
24. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود محمد شاكر أبو فهر ، مطبعة الخانجي ، (دط) ، القاهرة ، مصر ،(دت) ، ج1، ص423.422.
25. ينظر : عبد القادر بقشي : التناص في الخطاب النقدي والبلاغي دراسة نظرية وتطبيقية ، تقديم : محمد العمري ، دار افريقيا الشرق ، (دط) ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2007، ص 9.
26. أبي الشريف السبتي : رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ، ص 940.
27. المصدر نفسه : ص 940.
28. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود محمد شاكر أبو فهر ، مطبعة الخانجي ، (دط) ، القاهرة ، مصر ،(دت) ، ، ص115.
29. أبي الشريف السبتي : رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة ، ص 495.
30. المتنبي : الديوان ، دار بيروت للنشر ، (دط) ، بيروت ، لبنان ، 1983، ص150.